الكلام في حب الله والانس به

المحاضرة الثانية والعشرون

لفضيلة الشيخ سليمان المدني

اعتقاد الحب ممكن ، الا ان جمعا من العلماء انكروا حقيقة الحب بالنسبة لله سبحانه وتعالى وقالوا لا معنى لحب الله الا بالمواظبة على فعل الطاعات واجتناب المحرمات ، اما الحب الحقيقي كما يكون بين الناس بعضهم بعضاً أو كما يكون لبعض الاشياء بالنسبة لبعض الناس فهذا بالنسبة للباري عز وجل مستحيل .

ولاشك ان في كتاب الله سبحانه وتعالى ما يدل بصراحة غير قابلة للتأويل على حب الله ، مثل قوله تعالى (يحبهم ويحبونه) ومثل قوله تعالى (قل ان كان آباؤكم او ابناؤكم أو عشيرتكم أو اموال اقترفتموها او تجارة تخشون كسادها ، احب اليكم من الله ورسوله) .

فان في هاتين الآيتين نسب سبحانه وتعالى الحب الى نفسه وايضا في احاديث النبي (ص) واحاديث الأئمة المعصومين صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين ما يدل على وجود الحب بين الانسان وبين الله صريحا غير قابل للتاويل والحمل ، مثل قوله صلى الله عليه واله (لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون الله ورسوله أحَبَّ اليه من نفسه واهله ، وفي دعاء للحسين عليه السلام في يوم عرفة (انت الذي ازلت الاغيار عن قلوب احبائك ، فقاموا اليك متملقين) وفي الحديث القدسي والوارد عنه صلى الله عليه واله في مناجاة موسى ابن عمران (يا ابن عمران ، كذب من ادعى انه يحبني فاذا جنّه الليل نام عني) وهذا ايضا غير قابل للتاويل او الحمل على خلاف ظاهر اللفظ ، والروايات والاحاديث كما في قضية شعيب صلوات الله وسلامه عليه ما يدل ايضا على ذلك صريحا ، فقال بكى شعيب لحب الله حتى عميت عيناه فردهما الله عليه ثم بكى حتى عمي ، فرد الله عليه بصره ثم بكى حتى عمي فرد الله عليه بصره ، ثم قال له يا شعيب ان هذا امر يطول بك فان كان بكاؤك من النار فقد أمنتك ، وان كان بكاؤك للجنة فقد ابحتك . فقال يا مولاي ما بكيت خوفا من نارك وما بكيت شوقا الى جنتك وانما بكيت لحبي لك وعدم رؤيتك . فقال عز وجل اما وهذا حالك فلأخدمنك كليمي .. فقيّض له خدمة موسى عليه السلام عشر او عشرين سنة على حسب ما جاءت به الرواية .

وايضا في دعاء كُميْل والمعروف بدعاء الخضر والثابت نسبته الى امير المؤمنين عليه السلام (فهبني يا سيدي ومولاي وربي صبرت على حر نارك فكيف اصبر على فراقك ؟) والروايات وخاصة في مناجاة زين العابدين وسيد الساجدين صلوات الله وسلامه عليه من التصريح بالحب لله سبحانه وتعالى كثيرة لا تحصى وغير قابلة للتاويل او الحمل على غير المعنى الظاهر للحب ، ولعل السبب في نكران الحب الالهي هو عدم تصور معنى الحب فما معنى الحب ؟

الحب في حقيقته هو الميل النفسي لامر لذيذ أو لامر تلتذ به النفس ، فمتى ما وجد الميل الى امر تحصل منه النفس على لذّة وتلتذ به فان هذا هو

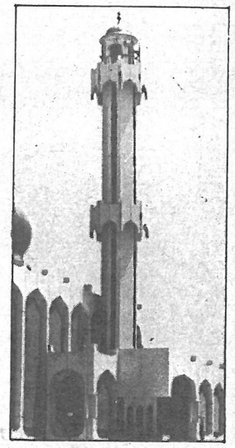

حقيقة الحب . وهذا المعنى قد يكون للامور المادية المحسوسة وقد يكون للامور القلبية والمعنوية ولا ينحصر في الماديات فقط .. بل ان اللذة العقلية واللذة القلبية اقوى بكثير من اللذة المادية المحسوسة .. والشوق للاشياء المدركة عند من يدركها الذّ بكثير من الشوق للامور المادية حتى عند من يلذ بها ، ولذلك فان جبلّة البشر الجبلة السليمة ، تستدعي حب الاشياء الجميلة وان لم يكن يرجع من جمالها نفع مادي على النفس ، كحب الإنسان النظر الى الخضرة ، دون ان يرجع اليه اية فائدة محسوسة من النظر الى الخضرة ، وكحب النظر الى الماء الجاري او الموج او غيرذلك ، بل حب النظر الى الالوان المختلفة والانوار الساطعة من دون ان تحصل هناك فائدة مادية محسوسة للانسان من جراء النظر الى هذه الاشياء ولكنه يستلذ بها ويهواها ويميل اليها .

فاذن اللذائذ لا تنحصر في الامور المادية المحسوسة ، حتى يكون الحب الذي هو الميل النفسي لامر ذي لذة ، يكون منحصرا في الامور المادية المحسوسة .. وكذلك ما نشاهده من ان الحب يتعلق بالمعاني السامية ، وان كانت تلك الكمالات والمعاني السامية لا ترجع بالفائدة على المحب ، كحب الناس للرجل الكريم وان لم ينلهم شيء من كرمه وماله وكحب التابعين الى المتبوعين ، لا تجد تابعا الا وهو يحب متبوعه ، لا تجد مؤمنا الا وهو يحب الانبياء والائمة عليهم السلام ، لا تجد مثلا ملحدا الا وهو يحب الالحاد .. لا تجد كافراً الا وهو يحب ائمة الكفر .. هذا دليل على وجود الجبلة النفسية ، الفطرة البشرية ، في ان ما يتصوره الانسان من كمال يوجد عند شخص آخر يستدعيه حب ذلك الشخص لوجود ذلك الكمال فيه ، وان كان ذلك الكمال لا يعود عليه بالنفع مطلقا .. بل ربما يضحى المتبوع ، نجد مثلا التابع ربما ينفق جميع امواله في نصرة هذا الدين او في نصرة هذا المبدا او في نصرة هذا الامام ، سواء كان امام حق او امام باطل ، بل يضحى حتى بنفسه في ذلك .. ما الذي يدفعه الى ذلك وما الذي يستفيده ماديا من ان زيدا من الانبياء او من ائمة الكفر له هذا الكمال حتى يضحي هو بنفسه في سبيله وفي نصرته وفي نشره والدعوة اليه ، إلّا تذوق الكمال والإلتذاذ به وان كان موجودا في شخص اخر .. فميل النفس واستلذاذها بالكمالات وان لم يعد منها نفع مادي على ذلك المحبوب ، هذا امر لا يتنازع عليه إثنان ، فلما لم تكن اللذة منحصرة في الماديات ، هذا اذا اخذنا بهذا التعريف السائد لمعنى الحب ، فنحن نجاري المنكرين في تعريفهم نجاري منكري الحب الالهي في تعريفهم لمعنى الحب .

ان الانسان في حقيقة الامر اول ما يحب فهو يحب نفسه ولا يحب شيئا قبل نفسه ، حتى الكمالات وحتى الاشياء الاخرى انما يحبها من اجل انه يحب نفسه ، فهو ما تستلذ به نفسه وهذا ناتج الى قوة المعرفة بنفسه ، فانه كلما اشتدت المعرفة وكلما قويت المعرفة بشيء وكان في ذلك الشيء لذة ، تميل اليه النفس بقدر قوة المعرفة ، فعندئذ لا يعرف الانسان شيئا كما يعرف نفسه ، ولذلك لا يحب الانسان شيئا كما يحب نفسه فاذن هو يحب نفسه ، ولذلك جُعلتْ معرفة النفس مقدمة لمعرفة الرب ، من عرف نفسه فقد عرف ربّه ، فاذا عرف نفسه احبها ولاشك ان وجود النفس هو اصل كمالات النفس ، بل كل كمال يرجع في حقيقته الى الوجود ، وكل لذة في حقيقتها ترجع الى الوجود ، فهو من اجل ذلك يحب وجود نفسه ، فاذا كان مؤمنا متبصرا وعلم ان وجوده في الحقيقه ليس الا ظلا وليس الا فيضا وليس الا تكرما من الوجود الاعلى جل سبحانه وتعالى ، فلاشك يكون ميله الى مفيض الوجود بعد ان يعرف بان نفسه لم تكن لتوجد لو لم يوجدها هذا المحسن ، كذلك لم تكن لتبقى لولا ان يضمن هذا المحسن المقتدر استمرار بقائها ، يكون له ميل واستلذاذ بالنسبة الى ذلك ، هذا اذا اردنا ان نعمل بالنظرية الذاتية في معنى الحب والنظرية الذاتية كثير من المفكرين يعتنقونها ، لذلك نضطر هنا الى التطرق اليها وليس فقط مثلا عند غير المسلمين مثل (ديكارت) بل حتى عند كثير من مفكري المسلمين يقولون بذلك بمختلف مذاهبهم .. فاذن بناء على هذا نستطيع ايضا ان نفسر وجود الحب الالهي ولو لم يكن الا من حب الانسان لنفسه ، على ان الحب يكون للمعاني الكمالية بغض النظر عن عود النفع منها ومن اجل ذلك يحب الناس حاتما الطائي وان لم يروه وما ذلك الا لانهم سمعوا بكرمه . وربما يحب الناس عليا عليه السلام وان لم يعتقدوا بامامته مثل بعض المسيحيين او غيرهم لما سمعوا من شجاعته ومن علمه ونخوته وكرمه وغيرها من صفاته عليه السلام .. هؤلاء لا يعود عليهم بشيء من ان يكون علي شجاعا او لا يكون ولكنهم يحبون الشجاعة ويحبون الكرم ويحبون العلم في اي موضع . وايضا مما فطر الله عليه عباده هو ان الانسان يحب المعاني الخيرة ، يحب الاعمال الخيرة ، فاذا وجد شخص له عمل خير ، له خلق عال ، يكون محبوبا عند الناس بغض النظر عن وصول الفائدة منه اليهم او عدم وصولها . فهذا دليل ايضا على ان المحبوب تارة يُحَبّ لذاته وتارة يُحبّ لغيره وليس دائما ان المحبوب يكون محبوبا لغيره حتى ينحصر الحب في الامور المادية والشهوية والبهيمية التي هي في الحقيقة محبوبة لغيرها . بل ان المحبوب قد يكون محبوباً لذاته بغض النظر عن وصول الفائدة ، كما نشاهده من حب المعاني السامية وحب من يتصف بالاخلاق العالية وكذلك الامور التي ينفر منها الطبع وتكون مكروهة ، منها ما تُكرهُ لغيرها ومنها ما تُكره لذاتها . فالناس لا تحب الفجور وان كانوا فجرة ولا تحب الفسق وان كانوا فسقة ، ولذلك لا نجد فاجراً يحب ان ينشا ولده على الفجور ، او بناته على الفجور ، لماذا ؟ لانه بطبيعته التي فطره الله عليها يكره هذه الامور لذاتها ، كما انه وان كان من ارذل الناس اخلاقا واسقطهم همة ، يحب اهل الاخلاق العالية واهل الهمم العالية مع انه ليس من قبيلهم ، وان كان حب المماثل وحب الجنس اقوى ، لان المعرفة به اكثر .. يعني حب الناس بعضهم لبعض انما تكون واضحة وجلية ومنتشرة بين الناس لان الناس يعرفون بعضهم بعضا اكثر من معرفتهم بالامور المعنوية .. مثلا جمال الاخلاق العالية .. قليل من الناس من يعرفه .. فاذا ضعفت المعرفة فبمقدار ضعف المعرفة يضعف الميل .. واذا قويت المعرفة فبمقدار قوة المعرفة يقوى الميل ، فيشتد الحب او يضعف نتيجة لكثرة المعرفة او قلتها .. ونحن ايضا نقول ان احباب الله قليلون ، بل هم اندر من الكبريت الاحمر لان من يعرف الله سبحانه وتعالى قليل ، والذين يعرفونه حق معرفته اقل .. لا يمكن ان نقول ان كل من تصور ان الله اوجده من العدم احب الله ، قد لا يخلو قلبه من حب الله وهذا الحب ينفعه ان شاء الله عند الممات ، لكنه لا يكون محبا لله كمحمد بن عبدالله (ص) ، الذي هو اعرف خلق الله بالله ، وكلما ضعفت معرفة الانسان بالله كلما زال حب الله من قلبه ، اننا لا ندعي ان حب الله منتشر بين الناس ومعروف بين الناس ، كحب الجنس او حب الاكل أو حب القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، او امثالها مما يُحبُ لغيره .. لا .. حتى المعاني المعنوية مثلا قد لا يتذوقها كل الناس .. لو مر شخص على اناس وقفوا يتفرجون على حديقة جميلة بها نهر جار .. فيقول ماذا تفعلون ؟ فيقولون ننظر الى هذه الورود البهيجة والماء الجاري .. ربما يستسخف عقولهم على وقفتهم او التزامهم بالاتيان الى هذا المكان والنظر الى هذا المنظر ، لان ادراكه للمعنى الجمالي في المنظر ضعيف ، وليس لأن هذا المنظر لا يثير احساسا لذيذا عند الناظر

ولذلك مثلا المصاب في حاسة الشم اذا كان لا يشم شيئا من الروائح لا يقول انني احب الروائح الطيبة .. قلبه خال من حب الروائح الطيبة ، هو لا يعرف معناها حتى يحبها . اما والعياذ بالله لو انعكست عنده حاسة الشم بحيث اصبح يشم الورد منتنا يضرب مثل عند العرب بالجعل . الجعل اذا شم العطر يموت من النتن .. فاذا ازدوا موت الجعل جعلون بشم العطر .. لان الله سبحانه وتعالى خلق عنده حاسة الشم معكوسة فلو فرضنا ان انسانا من البشر اصابة مرض بحيث انعكست عنده حاسة الشم .. فهو لا يحس بالراحة الطيبة حتى يحبها . اما لو كان سليما ويحس بالرائحة الطيبة فلابد ان يلتذ بها .

وهكذا في المرئيات وفي المعاني الذهنية والعقلية من ادراك الحقائق العلمية وغير ذلك ، مثلا نجد ان بعض الناس ربما ينهمك في طلب العلم وفي المواظبة على القراءة والتحليل بحيث كل اوقاته تنفني ويلام على ذلك ، يلومه من لا يدرك هذا الامر ، لانه وهو يدرك قيمة هذه المعاني العلمية يستلذ بها بحيث لا يستلذ بشيء اخر من اكل وشرب او نساء او ما يستلذ به عادة البشر العاديون ، فانه لاشك ان اللذة العقلية اقوى بكثير من اللذة المحسوسة ، ولكن عندما تحصل المعرفة بتلك الحقيقة .. وكلما اشتدت المعرفة بتلك الحقيقة كلما قوي الحب لها والميل اليها .. ويضرب مثل عن احد العلماء الغربيين من انه دعا اشخاصا على الغذاء فجاءوا وتناولوا الغذاء وحدهم اما هو فلم يخرج من المعمل وانهمك في عمله وبحوثه ، ثم مني نفسه باكلة شهية بعد ان قرصة الجوع فخرج لكنه وجد المائدة خالية فاستفسر عن ذلك فقالوا له ان المدعوين الذين عزمتهم قد تناولوا الطعام بعد ان انتظروك ولكنك لم تخرج من معملك .. هذا العالم ما الذي جعله لا يحس بالم الجوع ؟ شوقه الى تلك المعارف التي يدرسها ويحللها ويلتذ بهذا الدرس والتحليل في طلب معرفة تلك الحقيقة .. وحتى اذا اخذنا الحب على انه الميل النفسي لامر ذي لذة فان من يعرف الله سبحانه وتعالى ويعرف كماله جل وعلا لابد وان يكون محبا له .. بل حتى على النظرية الذاتية يمكن تفسير هذا الحب .

وهو ان حب الله يعود الى حب النفس باعتبار انه مصدر وجود النفس وباعتبار انه مصدر بقاء واستمرارية هذه النفس المحبوبة ، ففي جميع الوجوه امكانية الحب الحقيقية موجودة وليس امرا ممتنعا كما يدعيه بعض العلماء بل كما ذكرنا ان المؤمن في غنى عن التطرق الى هذه النظريات باعتبار ما وجد في كتاب الله وسنة رسوله (ص) من نصوص صريحه غير قابلة للتاويل تدل على حب الله ، بل ان المنجي عند خروج الروح ليس الا حب الله ، لا الصوم ولا الصلاة ولا الزكاة ولا اي فعل من افعال الانسان ينجي هذا الانسان الا ان يكون محبا لله ، اما لو صلى ، كما ذكرنا في بداية المحاضرة ليس لانه يعبد الله ولكن لانه مرغم ان يصلي وإلّا دخل النار ، بهذا المعنى لا ينجو من النار ، يصلي خوفا من النار ينجو من النار ولكن ليس لانه لو لم يكن هناك نار بالمرة لا يصلي .. او يصلي لانه اذا لم يُصل لا ينال الجنة .. انما انه يصلي لينال الجنة فهذا يدخل الجنة ، ولكن اما انه يصلي لانه اذا لم يصل لا ينال الجنة ، يعني لم ينظر الى خالق الجنة ولم ينظر الى المتفضل له بالجنة . كما يعامل حاكما من حكام البشر ، لولا سجنه ما اطاع قانونه ، هذا لا يدخل الجنة ايضا .. بل لا ينفع الا حب الله ، وللبحث بقية تاتي في محاضرات اخرى ان شاء الله .

الحب هو الميل النفسي لامر تلتذ به النفس
وقد يكون هذا لامر مادي محسوس او لأمر معنوي وقلبي

الحب يشتد ويضعف بمقدار قوة المعرفة وضعفها
ولذلك جعلت معرفة النفس مقدمة لمعرفة الرب